أدوار الادب
في عهد بكوات المماليك

الادب في أمة ولا سيما الامم الشرقية وليد أمور ثلاثة لابد من توافرها كيما يزهر لانه نافلة كماليه لاينصرف العقل البشرى له الا اذا كان به فضل بعد ما تستنفده الحوادث وهموم الحياة المادية في نضالها للبقاء. وهذه الامور الثلاثة في ظننا هي اولا الحضارة القديمة المدخرة من عصور توالت على الامة وبلغت فيها مداها أو كادت. وثانيا وجود علَم قائم لتلك الامة لان العقول لاتنفتح الا اذا وجدت ميدانا تحس انها تكافأ فيه على مجهودها او على الاقل اذا شعرت بأن هناك عينا جليلة تنظر الى عملها وتقدره قدره . وتلك العين الجليلة التى تشجع الاديب على ان يظهر ما عنده اما ان تكون عين الشعب كما هى الحال فى العصور الحالية واما أن تكون عين قطب مشرف أو رئيس متصرف. أو هيئة محترمة اياً كانت . وذلك ما كان فى عصور الادب العربى الى أواسط القرن التاسع عشر . واما الامر الثالث فهو وجود ما يثير العقول الى التفكير العميق . ويبعث اليها جديد المعاني ويجعلها تحس بمختلف المشاعر الانسانية . وهذا لا يكون فى أوقات الركود بل يحدث في أوقات الانقلابات الاجتماعية وعصور الانتقال ولا سيما ما يمس قلوب الافراد ـ وعلى هذا يمكن أن نبحث في الادب العربي فى القرن الثامن عشر فى بلادنا :

وقفت مصر فى عهد سلاطين المماليك موقف الامين على المدنية الاسلامية اذ ورثت تلك المدنية عن قرون طويلة ودول عدة فكانت وارثة مدنية الامويين فالعباسيين . وتكدست بها حضارة الطولونيين

فالاخشيديين فالفاطميين فالايوبيين . وزادها مفخرة أن انحازت اليها الخلافة العباسية بعد تحطيم التتار لدولة المشارقة في بغداد وما يليها .

وقد دافعت مصر عن تلك المدنية امام غارات الصليبيين ثم صدت عنها كوارث التتار الاولى احفاد جنكيز وردت عنها تخريب جنود تتار تيمورلنك وبعد ذلك اصبحت الدولة الاسلامية الوحيدة صاحبة السلطان بين الدول الاسلامية ذات الحضارة التالدة لاسيما بعد ان تحطمت الدولة العثمانية عند اصطدامها بتتار تيمورلنك .

لكن انفراد مصر بالبقاء من بين الدول الاسلامية لم يكن طويل الامد فما كادت تفيق مما غشيها من حروبها حتى علا شأن العثمانيين وما لبثوا ان اصطدمت قوتهم بمدنيتها وانتهى النضال بين القوة والمدنية بانتصار الاولى واصبحت مصر بعد عزها جزءاً من الدولة الفسيحة العثمانية واسلم معقل الحضارة ماجاء تلك القرون الطويلة . وتنكس بذلك العلم الذى كان مركز مجد وبهاء وزال من مصر أحد العوامل فى ينبوع الادب ونفى بذلك قطب الدولة والرياسة العليا بها . فاصبح الوالى لا تصرف له ولا حرمة . وخبت تلك الحماسة التى كانت تفور بين حين وآخر فى قلوب المصريين حول بلاط سلاطينها الاولين فى دولة المماليك الاولى .

ومما زاد العقول انصرافا من التفكير في نافلة الادب أن الرياسة الاسمية لم يكن لها حقيقة بل كانت تتنازعها قوى ثلاثة أوجدها العثمانيون بقصد احداث التوازن بين القوى فى مصر حتى لا تطمع احداها فالاستقلال نعنى قوة الباشا وقوة الجنود وقوة المماليك . ولما كان من الطبيعى ان توجد في الدولة الواحدة سلطة حقيقية واحدة كان لا بد من حدوث

نضال مستمر بين هذه القوى الثلاثة حتى ينجلي النزاع عن حالة تستقر الامور عليها فاضطربت البلاد أشد اضطراب نحو قرنين حتى اخذت الحال تتكشف عن علو كفة امراء المماليك (البكوات) وذلك في أوائل القرن الثامن عشر . وكانت هذه الحزازات على شدتها بعيدة عن الشعب فانها كانت نضالا لا يمسه بل يمس الطامعين في السلطان والحكم ولم يكن هو الا موطىء سنابك خيول المتنازعين . فما كان العقل المصرى في ذلك العصر ليجد فضلا يصرفه في غير هم الحياة وبذلك كانت مصر قد فقدت ذلك اللون الزاهي من المدنية التي كانت لها من قبل عصر العثمانيين ولم تكن بها الرياسة المشجعة على البروز والازدهار وكانت الحوادث قاتلة للفكر غير باعثة عليه اذ كانت سببا في ضغط على الناس من خارجهم ولم تثر شيئا في داخل قلوبهم الا رغبة المحافظة على البقاء وسط العواصف الشديدة الثائرة وكان عند ذلك غاية ما بلغه الجزر الفكرى في البلاد فندر أن نجد في العصر الواحد اسما ممتازا لعالم أو لشاعر أو لمفكر وليس ادل على حال ذلك الانحطاط من ان نورد شيئا من كلام شيخ أدباء ذلك العصر وهو الشيخ حسن البدرى الحجازى :

قال من قصيدة في ذم الاقارب :

حذار حذار من قرب الاقارب	فهم صل الافاعى والعقارب
اناس ان تعبت فيسترجوا	وتبلوهم لراحتك المتاعب
غنيا أن تكن حسدوا والا	فمنك تجنبوا من كل جانب

الخ الخ

وقال في ذم المتظاهرين بالتقوى من قصيدة طويلة :

احذراولي التسبيح والسبحه والصوف والعكاز والشمله
والدلق والابريق لا سيما شيوخ ابليس اولي الشمره
الخ الخ

وقال في حوادث أيامه :

قد جاء مصر باشة أيامه ليست ملاح
ضرب مدافعا بها كذا رماح وصفاح
فقلت في تاريخه خليل باشا في كلاح
أي في زمان كالح ليس به وقت انشراح

غير ان ذلك الجزر لم يلبث ان بدأ بعده أول المد مذ بدأ السلطان يرجع الى بكوات المماليك فأخذ الشعب ينظر اليهم نظرة المحكوم الى حاكمه الطبيعى وظهر في أوائل القرن الثامن عشر أمثال ايواظ بك وابنه اسماعيل بك ايواظ وقد قبض الاخير على الادارة الداخلية للبلاد نحو ثمان سنين كان فيها ملك البلاد في الحقيقة تاركا مظاهر الرياسة العليا للباشا العثماني وقد حرك أعجاب المصريين لذكائه وميله للخير

ومن ذلك الوقت لم يعد الامر للعثمانيين بل ظل بين امراء المماليك يتنازعونه فيما بينهم فمن ساد منهم أصبح الملك الفعلي حتى يغلبه سواه من المماليك فيصبح ملكا بالفعل حتى يغلبه غالب من طائفته . فتجلى الامر للشعب عند ذلك وبدأ العلم القديم يرجع ماثلا أمام عينه وأدرك ان هناك سلطة يستطيع ان يجعلها مركزا له . وأول من جعل في مصر بلاطا ومجلسا عاما للادباء والعلماء على النحو الذى كان متبعا في أيام سلاطين المماليك القدماء هو رضوان شريك ابراهيم وهما اللذان اقتسما السلطة بمصر في أواسط

القرن الثامن عشر .

وفى هذا الوقت خبت جذوة النضال بين المماليك والعثمانيين وكان الترك قد أيقنوا أنهم عاجزون عن القضاء على المماليك فآثروا أن يتركوا لهم الحكم الداخلى ما دامت رسوم الرياسة العليا محفوظة لهم ـ وقد خفف ذلك من ويلات الشعب فبدا تمام العاصفة ينقشع حوله شيئا فشيئا ولهذا نسمع بعض أنغام لا بأس بها تتردد من قصور رضوان وكان أحسنها صادرا عن شيخين من شيوخ أدب العصر وهما الشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى والشيخ قاسم بن عطاء الله المصرى . ويمتاز قولهما بشيئين أولهما التصرف فى الاوزان والنحو على الاساليب العباسية المتأخرة والثانى وجود رائحة الرخاء والاطمئنان في ثنايا السطور وذلك لان الامر كان استقر فى مصر فى يد الشريكين وبدأت اسباب اليسر والاصلاح على يديهما واتفق عند ذلك ان عادت حركة التجارة الشرقية الى مصر فاستفادت الامة والحكومة منها ما ساعد على الانصراف الى شيء من كماليات الترف

قال الشيخ قاسم بن عطاء الله من مدحه فى رضوان :

بكت بدمع الطل عين النرجس   فأضحكت ثغر الاقاح الالمس (١)

والورد يزهو باحمرار الملبس   مفتحا اطواقه بالمجلس

فأرّج الروض بنشر الند

ومنها :

محته قلبى وجفنى سكنا   لما اراني منه وجها حسنا

(١) الالمس ـ سواد مستحسن فى الشفة

وطرفه الساحر لما ان رنا   بسحره مازال حتى فتنا

فلم اجد عن طوعه من بد

ومنها:

دع علة التعليل بالاماني   واقصد حمى الموصوف بالامان

وانف لباس الهم والاحزان   واسأل عن التنعيم من رضوان

قل ما تريد لا تخف من رد

مليكنا جلت لنا اوصافه   لم يبد في غير العطا اسرافه

ضياؤه قرت به اضيافه   تفعل في جيش العدا اسيافه

ما يفعل الصرصر يوم الحصد

على ان الشيخ مصطفى الدمياطي كان أكثر كتابة واقرب مجلسا من رضوان ومما قال فيه من مطلع قصيدة مدح:

يا نسيما ساريا عن الربا   يعطر الارجاء من نشر الصبا

روّح فؤادي بحديث او نبا   عمن صبا قلبي اليهم وصبا

وحبهم أثار نار وجدي

ومنها:

ظبي اغن فاتن الالحاظ   عذب الثنايا رائق الالفاظ

باهي المحيا فاتن الوعاظ   موكل للطرف بالايقاظ

يزري بغصن البان لين القد

ومنها:

وهات لي حديث الازبكيه   وما حوت ارواحها الزكيه

حسنا زهت أرجاؤها السنيه   اذ لاح فى غرتها البهيه
قصور رضوان الملا والمجد

وقال من قصيدة اخري :

زهت من ربا روض السرور معاهده   واشرق ناديه وراقت موارده
وفاحت بارواح التهاني أزاهر   وغرد قمري للسعود وناشده
واضحت مغانيه الحسان نواضرا   برضوان هذا المصر دامت محامده

ولا يسع الانسان اذا قرأ هذه السطور الا ان يدرك الفرق بين أدب اول القرن ووسطه ولسنا نقول ان أدب عصر رضوان قد بلغ حد الاجادة أو قارب الاحسان ، فانما كانت ثورة في النفوس اتخذت اول مظاهرها قولا نسجته على منوال قديم حاولت ان تحاكي به اقوال أهل البديع من شعراء العباسيين بغير أن تهتز اهتزازهم ولا أن تنقل جو حيهم ، وغاية ما نريد بسطه ان عصر رضوان فتح أمام المقول مجالا وأوقد تلك الانوار التي لا يحضر شيطان الادباء الا عليها .

وقد استمر مد النهضة الادبية فى سبيله حتى بلغ مداه فى ذلك القرن فى أيام على بك الكبير — عند ما أظهر المماليك استقلالهم بشكل واضح محسوس . واكبر أدباء ذلك العصر المعروف بابن الصلاحى . ويمتاز بأن في شعره روحا قويا يدل على أنه كان يقول ما يحسه ويمكن أن نعده نتيجة العصر والنهضة ذاتها وليس نتيجة تشجيع الحاكم كما كان من سبقه من رجال رضوان فكان لذلك اكثر قوله بث شجون وتغنيا بمختلف المشاعر . وقد اهتز الشعب اهتزازا محسوسا بحروب على بك ومشروعاته واعماله لانها لم تكن ذات أثر فى الضغط عليه بل نفست

امامه ميادين جديدة للتفكير . وزاد من أثر عصر علي بك ان الثروة زادت في البلاد زيادة طيبة وذلك يرجع لاسباب اكبرها نمو التجارة الشرقية وحسن ادارة ذلك الرجل الكبير :

فلهذا يمكن أن نعد قول ابن الصلاحى نتيجة للروح الجديدة التي دبت في ذلك العصر وهو ما يزيد اهتزازنا لقوله وهاك مثالا منه :

سلبته يوم الدوحتين طليمة الرشأ الربيب
وسرت به نحو الخيام يد الصبا ويد الجنوب
ترنو الهوادج عن صفا شمس تميل الى الغروب
والبدر يذهب من خلا ل السحب في مرأى عجيب
والرق يخفق والازاهر مثــــل قلبي في وجيب
ياحادى العيس التى سارت على قلبي الجنيب
علل عليل هوى غير دك ما تقادم بالطبيب
والزهر يضحك من بكاء الطل بالثغر الشنيب
والريح تكتب في الغدير حديث اسرار الغيوب
والطير تقرأ والغصون تهـ ـز أعطاف الطروب
والورق تصدح في الريـاض بصوت محزون كئيب
في رنة الشادى وهينمـة القطا والعندليب

وهكذا ينسى الانسان عند قراءة ذلك القول أنه في عصر يمر عليه مؤرخو الأدب مرور المهمل المحتقر لان تلك الروح وذلك اللون لا عهد لنا به الا في أيام نزوات النفوس وهى أيام بدء النهضات . ولهذا نعتقد اعتقادا قويا ان مصر كانت إذ ذاك على ابواب عصر جديد يوشك ان يطلع

عليها كانت تجدد فيه شبابها وتعود أمة ناشئة تفتح عيونها للحياة وترسم لها خطة فى سبلها . غير ان الانتكاس أشد وقعا على الاجسام من المرض وهكذا الحال فى انتكاس الامم وقد انتكست مصر بعد ان كادت تبل لان عهد مراد وابراهيم الذى انتهى به القرن الثامن عشر ادجم الفوضى والحروب الداخلية وقد اعقب ذلك ما كان أشد وأدهى فى أيام الحملة الفرنسية بمصر وما تلاها من اضطراب وعواصف ونيران . فلما أشرق القرن التاسع عشر فى أيام محمد على خرجت مصر بعد دور الانتكاس ضعيفة شاحبة ضيقة الخطوات . وكان عليها أن تبدأ من جديد فى سيرها البطىء وهكذا قضت القرن التاسع عشر فى نهوض ابلغها اخيرا شاطىء السلامة فى آخر أيام محمد على ومن ثم بدأت النهضة الادبية التى نعيش نحن الآن بين فروعها وازهارها

محمد فريد أبو حديد